الخوري يوسف فخري

يختتم المزمور ١١٨ سلسلة أناشيد (مز ١١٣–١١٨) سُمّيت بـ «الهلّل الكبير»، أو «الهلّل المصري» (نسبة إلى مز ١١٤: ١ = عند خروج اسرائيل من مصر...) التي ينشدها شعب اسرائيل في أعياده الكبيرة: الفصح، العنصرة، والمظال، وفي زمن متأخّر، في عيدي التجديد (חֲנֻכָּה – «حَنُوكَه»، عيد الأنوار؛ ١ مك ٤: ٣٦–٥٩؛ يو ١٠: ٢٢)، ورأس الشهر (חֹדֶשׁ – «حُدِش»، أوّل القمر، أش ١: ١٣؛ عا ٨: ٥). ولقد كان لـ «الهلل الكبير» دورٌ رئيسيٌّ في ليتورجية الهيكل الثاني، خاصّة في عيدَي الفصح والتجديد.

ففي ليلة الفصح، تتّكئ العائلة حول المائدة، يقوم رب البيت فيتناول كأس الخمر الأوّل الممزوج بالماء، ويرفعها، ويبارك الربّ، ثمّ يشرب منها، وكذا يفعل الحاضرون كلّ بدوره. وبعد غسل اليد اليمنى، يأكل الجميع الأعشاب المرّة، ثمّ يفسّر رب البيت معنى عيد الفصح (العبور، الأعشاب المرّة، خبز الفطير، الحمل الفصحي...)؛ وفي نهاية حديثه ينشد الجميع القسم الأوّل من «الهلّل الكبير»، أي المزمورَين ١١٣ و١١٤. ثمّ يشربون الكأس الثانية. بعد هذه المراسيم الافتتاحيّة، يغسل كل الحاضرين أيديهم، ثمّ يأخذ رب البيت الخبز الفطير (מַצּוֹת، أو «مَصَوْت» Αζυμα)، ويباركه، ويكسره، ويعطي الحاضرين. عند ذلك يؤكل الحمل الفصحي، وتُشرب الكأس الثالثة التي تُسمَّى «كأس البركة» (مز ١١٦: ١٣). في نهاية العشاء ينشد الجميع القسم الأخير من «الهلل الكبير»، أي المزامير ١١٥–١١٨). وينتهي العشاء الفصحي بشرب الكأس الرابعة الختاميّة. في هذا الاطار يقول التلمود: «الفصح طيّب مثل الزيتون، وعلى الهلّل أن يثقب سطوح البيوت». ولقد أنشد يسوع والرسل «الهلّل الكبير» بعد العشاء الأخير: «ثمّ سبّحوا (أي رتّلوا الهلل الكبير) وخرجوا إلى جبل الزيتون» (مت ٢٦: ٣٠؛ مر ١٤: ٢٦).

عيد التجديد (חֲנֻכָּה – «حَنُوكَه»، هو ذكرى تطهير الهيكل على يد يهوذا المكّابي في ٢٥ كانون الأوّل سنة ١٦٤ ق. م. يدوم العيد ثمانية أيّام، تُضاء فيه الأنوار في الهيكل والبيوت. كانت تُقام في هذا العيد التطوافات الدينيّة، فيحمل الشعب الأغصان الخضراء («ألشِمْرَاخ»)، وسعف النخل، ويصعد إلى الهيكل، فيطوف المؤمنون حول المذبح ملوّحين بسعف النخل ومنشدين الهلل الكبير: «زيّنوا المواكب والأغصان في أيديكم حتى قرون المذبح» (مز ١١٨: ٢٧). وكان يُنشد «الهلّل الكبير» في أعياد أخرى أيضاً، وذلك بحسب ليتورجيّة كلّ عيد ومناسبة دينيّة.

١ – المزمور ١١٨

هذا المزمور هو نشيد شكر احتفالي يتضمّن ليتورجيّة يشترك فيها ثلاث مجموعات تؤلّف جماعة شعب اللّه: «بيت اسرائيل» (آ ٢)، أي عامّة الشعب؛ «بيت هارون» (آ ٣)، أي الكهنة؛ و«المتقون للرب» (آ ٤)، أي الوثنيّون المتعاطفون مع اليهود وتقاليدهم (مثل كورنيليوس، أع ١٠: ٥)؛ بعد الجلاء، أصبحت عبارة «المتّقون للرب» تعني «فقراء يهوه» (עֲנִיֵּי יְהוָה – «عَنَوِيمْ يَهْوِه»). يُنشد هذا المزمور خلال احتفالات طقسيّة، وعلى دفعتين: آ ١–١٨ وآ ١٩–٢٩:

القسم الأوّل (آ ١–١٨)، هو نداء إلى الجماعة لتمدح الرب وتشكره (תּוֹדָה – «تُودَه»)، وفيه حوار بين المرتّل والشعب. يقول المرتّل : «اعترفوا للرب لأنّه صالح». يردّ الشعب : «لأنّ إلى الأبد رحمته» (آ ١)؛ وهكذا في باقي الآيات. يرتّل المؤمنون هذا القسم وهم صاعدون في تطواف طقسيّ إلى الهيكل. أمّا القسم الثاني (آ ١٩–٢٩) فيُرتَّل على باب الهيكل، ثمّ حول المذبح، وهو صلاة شكر (תּוֹדָה) أيضاً وحوار بين المرتّل والشعب والكهنة.

يُطرَح السؤال : أي حدث تاريخي يُحيي ذكراه هذا المزمور ؟ هل حدث الخروج ؟ هل العودة من السبي البابلي سنة ٥٣٨ ق. م. ؟ هل عيد تدشين أسوار أورشليم التي رمّمها نحميا سنة ٤٤٤ ق. م. (نح ٨:١٣–١٨ و١٢:٢٧–٢٨) ؟ هل ذكرى تطهير الهيكل وتدشين المذبح على يد يهوذا المكّابي سنة ١٦٤ ق. م. (١ مك ٤:٣٦–٥٩) ؟ أم ذكرى الانتصار على نِكانور سنة ١٦٠ ق. م.(١ مك ٧:٤٣–٤٧) ؟ يُجمع أكثريّة العلماء على أن المزمور ١١٨ يُحيي ذكرى تدشين أسوار أورشليم المرمّمة على يد نحميا سنة ٤٤٤ ق. م.، في عيد المظال، وذلك لعدّة معطيات، أهمّها : إنّ ردود الفعل السلبيّة التي أظهرها أعداء اليهود ضد نحميا، والعقبات التي وضعوها أمامه عندما باشر بترميم أسوار أورشليم في زمن الهيكل الثاني (نح ٤:١–٣ و٦–٨؛ ٦:١–١٤)، نلقى صداها في مز ١١٨:٥–٧ و١٠–١٢).

يقول الأب العالم De Vaux : إنّ مز ١١٨ يعود في الأصل إلى زمن تكريس الهيكل الثاني سنة ٥١٦ ق. م. (عز ٦:١٣–١٨؛ في أيّام زربابل بن شألتئيل الحاكم، ويشوع بن يوصاداق عظيم الكهنة، والنبيَّين حجّاي وزكريّا الثاني)؛ ولكن عندما دشّن نحميا أورشليم المرمّمة، في عيد المظال، سنة ٤٤٤ ق. م.، أُعيدت صياغة المزمور على ضوء ذلك الحدث، وزيدت عليه بعض الآيات، خاصّة آ ١٠–١٢ و٢٧.

ولقد وجد يهوذا المكّابي في مز ١١٨ أجمل لوحة شعريّة تعبّر عن فرحته في تطهير الهيكل يوم عيد التجديد («حَنُوكَه»)، سنة ١٦٤ ق. م.، خاصّة آ ٥ و٢٧ اللّتين تعبّران أفضل تعبير عن تلك الفرحة.

٢– «يوم الرب»

عبارة «اليوم » (הַיּוֹם – «هَيُّومْ»)، أو «يوم الرب» (יוֹם יְהוָה – «يومْ يَهْوِه») (في السبعينيّة ημερα η أو ημερα του κυριου)، وترد كثيراً في العهد القديم (حوالي ١٨٠٠ مرّة)، ولها معنيان : الأوّل، وهو اليوم الذي يدخل فيه اللّه التاريخ، وينتصر على أعدائه؛ الثاني، وهو اليوم المقدّس، والمكرّس لعبادة اللّه. المعنيان متلازمان، لأن يوم العبادة هو اليوم المقدّس والمكرّس لعبادة اللّه. المعنيان متلازمان، لأن يوم العبادة هو اليوم الذي نحيي فيه ذكرى تدخّل اللّه في التاريخ لخلاص شعبه والمسكونة. ويُسمّى أيضاً «ذلك اليوم» (יוֹם הַהוּא – «يُومْ هَهُو»)، ويدلّ على زمن (في الماضي أو في المستقبل) يظهر اللّه فيه قوّته ومجده، فيجازي الأشرار ويكافىء الأبرار (عد ١٠:٣٢؛ أش ٩:٢٥؛ ١:٢٦؛ ١ أخ ٢٢:٢٩). ولقد أخذ «اليوم» بُعداً رمزيّاً»، فأصبح يوم النور والبركة والسعادة لأصفيائه (عا ١٨:٥–٢٠)، أي اليوم الذي يتجلّى فيه الرب كمخلّص لشعبه ومنتقم من أعدائه (عو آ ١٥؛ زك ١٢:١ي). لكنّ عاموس النبي (القرن الثامن ق. م.) عارض هذا المعتقد، وبيّن أنّ «اختيار اسرائيل» ليس ضمانة للشعب المختار تجنّبه عدالة الرب ومجازاته. فـ«يوم الرب» هو اليوم الذي يدين فيه اللّه المسكونة كلّها (بما في ذلك اسرائيل ويهوذا) بالعدل والحق، فيحمل الخلاص للصديقين، والمجازاة للفاجرين. ورأى الأنبياء أنّ «يوم الرب» هو يوم عقاب للمتشامخين (أش ٢:٦–٢٢)، ويوم إبادة للوثنيّة (صف ١:٧، ١٤)، ويوم حرب وقتال لا يفلت منه إلاّ الصدّيق التائب (يؤ ١:١٥؛ ٢:١ و١١). كما رأى فيه يوئيل النبي اليوم الذي يضرب فيه يهوه يهوذا (يؤ ٣:٤) وكلّ أعدائه (يؤ ٤:١٢–١٥ و١٩)، ويخلّص صهيون (يؤ ٣:٥؛ ٤:١٦–٢١) وكلّ الذين يدعون باسم الرب (يؤ ٣:٥). أمّا زكريّا فرأى فيه يوم خلاص البقيّة الباقية من شعب اللّه (زك ١٤)، ويوم التنقية والتصفية كما يصفّى الذهب (ملا ٣:٢–٥ و١٩–٢١). باختصار، يقول Y. Hoffmann إنّ «يوم الرب» هو اليوم الذي يتدخّل فيه اللّه الخالق في التاريخ ليضع حدّاً «للعدميّة» (תֹּהוּ וָבֹהוּ – «تُهُو وَبُهُو»؛ تك ١:٢) التي تهدّد المسكونة كلّها «بالخلاء والخواء»، أي العودة بها إلى زمن الفوضى البدائيّة (تك ١:١–٢).

انطلاقاً من هذا المفهوم اللاهوتي، غدا «يوم الرب» يوم انتصار اللّه الخالق على العدميّة والضياع، يوم انتصار «النظام» على «الفوضى»، و«الحياة» على «الخلاء والخواء». ولقد رأى اللاهوت الكتابي

في هذا التدخّل الالهي الأوّل في تاريخ البشريّة (سفر التكوين)، أساساً لكلّ تدخلات اللّه الخلاصيّة في تاريخ شعبه، فأصبح كلّ حدث من أحداث ذلك التاريخ (الخروج، المسيرة في الصحراء، إعطاء الشريعة، الخ) زمناً تتجلّى فيه القدرة الإلهيّة، فتقضي على عالم العدم والموت، وتمنح الخلاص للمختارين. لهذا، أحيا إسرائيل ذكرى تلك الأحداث بالفرح والمجد، لأنّها أزمنة مقدّسة حصل فيها على الخلاص عبر تاريخه، فأصبحت تلك الأحداث الخلاصيّة أيّاماً مقدّسة، أو بعبارة أخرى: «اليوم» أو «يوم الرب» ! هذا ما دفع صاحب المزمور إلى أن يطلق صرخة فرحه في كل ذكرى تخلّد تلك الأحداث:

«هذا هو اليوم الذي صنعه الرب تعالوا نسرّ ونفرح فيه» (مز ١١٨: ٢٤) !

٣ – «هذا هو اليوم !»

قلنا إنّ هذا المزمور أُنشد في مناسبات عدّة، فانطلق المؤمنون من اختبارات خاصّة لأحداث معيّنة (الخروج، إعطاء الشريعة، المسيرة في الصحراء، تدشين أسوار أورشليم سنة ٤٤٤ ق. م.، تطهير الهيكل سنة ١٦٤ ق. م.)، ليبيّنوا رحمة اللّه. وهذا الخلاص الذي تمّ لأفراد أو لجماعة، إنّما ينبع من الخلاص العظيم الذي حصل عليه الشعب كلّه. فالخبرة الفرديّة للخلاص تصبح خبرة جماعيّة لكلّ أبناء شعب اللّه.

ما اختبره الآباء سابقاً يختبره الأبناء حاضراً، وهكذا يصبح تاريخ الخلاص، بخبراته وأحداثه الفرديّة والجماعيّة، تاريخاً واحداً لشعب واحد. لهذا، يصعد الشعب إلى الهيكل ليعيش – من خلال الليتورجيا – «الخلاص» الذي يتمّ له في حياته. فيعبّر عن شكره للّه بهتاف يردّده مع الكهنة: «هذا هو اليوم الذي صنعه الرب...» (مز ١١٨: ٢٤)، ويزيد على ذلك صرخة الخلاص: «هوشعنا» (הוֹשִׁיעָה נָּא – «هُوشِيعْ–نَا»)، أي «يا ربّ خلّصنا» (آ ٢٥). وهكذا تنعش الليتورجيا في قلب المؤمن شعلة الايمان بحاضر ومستقبل زاهرَين يُعدّهما اللّه لشعبه. فكما خلّص اللّه الآباء في الماضي وأزال عنهم كلّ أشكال العبوديّة، كذلك هو قادر أنّ يخلّص الأبناء اليوم أيضاً. لقد أصبح «اليوم» الجسر الذي يعبر عليه الماضي نحو الحاضر والمستقبل. وهكذا يصبح «اليوم» ملتقى الزمان بماضيه وحاضره ومستقبله، لا بل يصبح «زمناً مقدّسا» يلتقي فيه شعب اللّه مع إلهه وخالقه في حدث خلاصي تحريري يملأ صداه رحاب الزمان. وصرخة الفرح: «هوذا اليوم الذي صنعه الرب... هوشعنا» (آ ٢٤–٢٥) تصبح تأويناً لتلك الأحداث التاريخيّة الخلاصيّة، لا بل دعوة موجّهة إلى اللّه ليُظهر مجده كما أظهره في الماضي، فيصبح «يوم الأمس الخلاصي» هو «يوم الآن» و«يوم الغد» حتى نهاية الأزمنة.

الخاتمة

لقد أعطت الليتورجيا اليهوديّة مكاناً رئيسيّاً للمزمور ١١٨، فأنشدته في الأعياد الكبيرة، وخاصّة في أعياد المظال والتجديد والفصح. أنشده يسوع مع رسله (مر ١٤: ٢٦) بعد العشاء السرّي وقبل أن يذهب إلى جبل الزيتون ليلة موته. ولقد خاطب مار بطرس رؤساء الشعب والشيوخ قائلاً لهم: «هذا هو الحجر الذي رفضتموه، أيّها البنّاؤون، فصار رأس الزاوية» (أع ٤: ١١؛ مز ١١٨: ٢٢). ولقد ذكر مار بطرس أيضاً هذا الحجر، فكتب في رسالته الأولى: «فاقتربوا من الرب، فهو الحجر الحي المرفوض عند الناس...» (١ بط ٢: ٤–١٠). ويقول الأب جان دانيالو (J. Daniélou)، إنّ الجماعة الأولى كانت تختم صلواتها الأفخارستيّة يوم الأحد بعبارات ليتورجيّة ثلاث: الأولى، «هذا هو اليوم الذي صنعه الرب... هوشعنا» (مز ١١٨: ٢٤–٢٥)؛ الثانية، «مارانتا» (رؤ ٢٢: ٢٠)؛ والثالثة، «آمين» (٢ كور ١: ٢٠؛ رؤ ٣: ١٤). لهذا كان مز ١١٨ نشيد الكنيسة لـ «يوم الرب»، «يوم الأحد»، الذي هو تذكّر أسبوعي لعيد الفصح والقيامة.

راجع:

الخوري بولس الفغالي، **«هلّلوا للرب من السماوات»** (مز ١٠١–١٥٠)، (الرابطة الكتابيّة، سلسلة القراءة الربيّة رقم ١١، جونيه، لبنان).

Louis JACQUET, *Les Psaumes et le cœur de l'homme,* Tome III, Duculot, Belgique, 1979.

X. LEON-DUFOUR, *Résurrection de Jésus et message pascal,* Paris, 1971.

Dictionnaire Encyclopédique de la Bible, Brepols, 1987.

Y. HOFFMANN, *The Day of the Lord as a Concept and a Term in the Prophetic Literature,* New York, 1981.

R. DE VAUX, *Les Institutions de l'A. T.,* Tome II, Cerf, Paris, 1982.

Jean DANIÉLOU, *Le Judéo-Christianisme,* Institut Catholique de Paris, Paris, 1980.